الفصل الثالث

شعر يعبر عن الصراعات القبلية بين قبائل إفريقيا فيما وراء الصحراء

- قصيدة «أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي» يهجو بها «كلنتصر».

الصراعات القبلية بين قبائل جنوب الصحراء

فرضت قساوة الصحراء على سكانها التكتل والقبلية والأحلاف وهو طابعها العام والمميز لها، فنجد كل قبيلة تتحالف مع الأخرى وتشترك معها في الماء والكلأ، وتنهض كل واحدة منهما لنجدة الأخرى إذا ما تعرضت لخطر داهم. وعادة ما يكون النزاع بين أفراد القبائل على الماء والكلأ، أو إذا تعرض أحد أفراد القبيلة لأي اعتداء من قبيلة أخرى. وقد تنشأ بينهم، حروب تطول أو تقصر، ولكن عادة ما تتدخل أطراف أخرى للإصلاح بينهم وتتبادل القبيلتان أصنافًا من الشتائم، وتذكر كل قبيلة ما كانت عليه الأخرى من أعمال مشينة لاتليق بمكانتها، وتصغرها في نظر القبائل الأخرى. والمعبر عن آراء القبيلة هو مذيع الصحراء، ورجل الإعلام، الشاعر الصحراوى.

وهذا اللون الذي نقدمه يعكس صراعًا بين قبيلة كنته وقبيلة كلنتصر، وكان هذا الصراع في أوائل القرن العشرين، بحيث كان بعض من قبيلة كنتة يقطن تغارست، والبعض الآخر على نهر النيجر، وجزء ثالث منها حول الآبار من الناحية الشمالية.

أما قبيلة كلنتصر فموطنها بلدة قندام والتى تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت وتبعد عنها بحوالي خمسين كم، وقد زرتها عام 1985.

أسباب الصراع :

يقال : إن فتى من قبيلة كنته سافر إلى قندام، فصادف الفتى الكنتى رعاة من كلنتصر وطلب منهم شاة ليأكلها فرفضوا طلبه، فحاول أخذها بالقوة، فما كان من الرعاة الا أن أشبعوه ضربًا.

وعندما سمعت قبيلة كنته الخبر، اعتبروا ذلك إهانة لهم، فما كان منهم إلا أن نهضوا لقتل الرعاة وأدركوهم على بئر يقال له (أنجبا) فقتلوا بعضهم وفر الآخرون. وعندما تناهت الأخبار إلى مسامع قبيلة كلنتصر وما تعرض له رعاتهم، جمعوا أحلافهم من القبائل وتوجهوا صوب مضارب قبيلة كنتة للانتقام، والتقى الجمعان في موضع يدعى (تغاو غوين) ودارت معركة حامية الوطيس، كان النصر فيها حليف قبيلة كلنتصر، وقتل في هذه المعركة أمير كنتة وقائد جيشها، وغنمت كلنتصر غنائم كثيرة، إلا أن نار الهزيمة ازدادت اشتعالا في قلب قبيلة كنتة، فبينما كانت قبيلة كلنتصر راجعة بعد المعركة، لحقت بهم قبيلة كنتة فى بلدة (أنبكسا) وتجددت الحرب من جديد، وانتصرت قبيلة كلنتصر للمرة الثانية على كنتة.

وكانت تغذي هذه الحروب النعرات والعصبية القبلية. والمنتصر في هذه الحروب مهزوم، فبدلا من أن يوجهوا أسلحتهم إلى صدر المستعمر يوجهونها إلى بعضهم البعض، وبدلا من أن يتغنوا بأمجادهم التليدة الزاهرة يتقاتلون لأتفه الأسباب.

فهذا أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى عام 1865م بمدينة (ساردين)، ينظم قصيدة طويلة يهجو فيها كلنتصر، نوردها كنموذج من نماذج الهجاء الذي كان منتشرا في جنوب الصحراء.

يقـول :

كُفُّوا عن الحرب لستم أهلها بني ... جالوتَ والتزموا الأحراثَ والبقرَا
إنا رجال بني الكنتي صولتنا ... في الحرب والضرب لاتبقي لكم أثرَا
نصدُّ عنكم إذا تُؤذوا ونترككم ... على أذاكم ولم نذكر لكم خبرا
ونستلين لكم واللينُ شيمتُنا ... لغير من يبتغي لنا به الخورا[1]

(1) الخور : الضعف.

ونأنف السب سبكُم وذمكُم ... ولم نُبال بمن جفا ومن هجرا
ومن أقام على صداقة ومن اعـ ... ـتدى ومن برّ في الأقوال أو فجرا
حتى إذا مار شحمٌ بين أضلعكم ... وغركُم تركنا إياكم غررا
قاتلتمونا بلا جرم مكابرة ... على العزيز الكريم الخالق الصُّورا
وبعد قتلكم لمنع قاتلنا ... وحربنا دونه تمالت الكبرا
كفى من الهون أن تأبوا بصاحبنا ... عشرين منكم كراما عندكم غررا
فلم تُقيموا حدود اللّه في حدث ... عمت نوائره الأهلينا والنظرا
ولم تلينُوا بقول كان أو عمل ... ولم تميلوا فتُطفوا الشر والشررا
لما أبيتُم وجدتم غب قتلكمُ ... قتلاً ذريعًا يذيق الظالم الصبرا[1]
ذُدناكم من دياركم نتبعها ... دارًا فدارًا فمرعى ناعمًا نضرا
نسوقكم بأعاليها وأسفلها ... سوق النعام يساقى السهل والوعرا
نطارد الجمع والفريد مُنفرًا ... نفي الضراغم من أوجارها. . .
حتى بلغنا بكم تنبكت أرضكمُ ... وبيس بند عراةً جوعا فُقرًا[2]
وطبلكنك وبنتكذل بلدته ... أمست خلاء فلم نبق بها أثرًا[3]
وساحل البحر لم نترك بساحته ... من الثعابين لاسمعًا ولا بصرا
وجزتُم عامدي فرش معاقلكم ... ورأس ماء بكمُ لتنفرُوا النفرا[4]
لما استقرت بفرشكم مجالسكم ... وخلتم بطئنا في جنبنا حذرا
إذا بخيل عليها الأسد غاشية ... من جانب الغرب لن تبقي ولن تذرا[5]
ترخى أعنتها للموت خائضة ... بحر المنية لا تخشى بها ضررا[6]

---

(1) نعت الصبر بعصارة شجر مر. وقيل : «الصبر مفتاح الفرج».

(2) بيس بند: دشرة إلى الشرق من تنبكت شهدت منازعات بين قبيلة كلنتصر وكنته.

(3) بنتكذ وطبلكنك : قرية صغيرة في شرق تنبكت، جرت فيها معارك بين كلنتصر وكنته.

(4) فرش : جبل بين تنبكت وقندام مررت به. أما رأس الماء فهو مكان شمال بلدة قندام.

(5) (6) يحذر الشاعر أعداءه ويفتخر في آن واحد بأن فرسانهم كالأسود على جيادهم العربية الأصيلة تقدم عليكم من ناحية الغرب تفني أولكم وآخركم.

أطفال صدق تربت من أكابرهَا ... في المجد لا ترتضى لمجدها الغيرا[1]
توارثته من الأجداد ليس لها ... جدٌّ هزيلٌ ولا يتبع البقرا[2]
ولاجبان ولانذل ولابخل ... ينحط عن فتى العلياء منكسرا
فبددت كلغزاف وشيعتهم ... وصيروا شذرًا بأرضهم مذرًا
وإيكتاون ومن والاهم نهبت ... أموالهم زمرٌ أكرم بها زمرا
من جانب الحوض منازلها كرم ... يوم الرخا وعن الأقران لم تحرا
جاءت تدافع بالأيدي بنادق في ... أجوافها من صنيع الروم ما نضرا
على جياد محنات مسومة ... مثل الخذاريف ترمي الفارس الخطرا
فلم يقم لوجودها ووجهتها ... من نجل جالوت إلاجاء مُنتشرًا
فبعد يومين أو ثلاثة رجعت ... وألبستكم وراها الشمس والقمرَا
وخلفتكم رعاعًا لاغناء لكم ... سوى رعاية ما استطار وانتشرا
وجاءت الخيل نحو الشرق تركلها ... ببني الوجُوه حسان الهيئة الأمرا
تحدو بجيش به الأبطال نائحة ... نوح الثكالى تباري الشادي الضجرا[3]
فبددتكم كفعل الأولين ولم ... تلو على غير مَنْ مِنْ جمعكم حُشرا
فقتلت بخيامكم صدوركم ... والمال أبقت لمن... ظفرا
وصيرتكم بها هلكى كأنكم ... أعجاز نخل أثيل النبت منقعرا
وحملت بَعدُ بالطبُول أبعرة ... ثلاثةً وأبت أن تنتف الشَعرا
لما تولت وما استقصى أخوكرمٍ ... والحر لا يعلق الأدران والغمرا
قفوتموهم بأضعاف مُضاعفة ... وقد تقلل من مجموعهم كثرا
من بعدما اقتسموا منكم غنائمكمُ ... وأيقنوا أنكم لم تقتفوا أثرا
إذا بكم تلقطون كل منخزل ... عن السواد ضعيف القلب منسترا
فتقتلوه وقد ريئت أرائلكمُ ... وجيشنا صدره قد أخلع الخمرا

(1) يذكر الشاعر أعداءه على أنهم تربوا على الصدق والإباء ولا يرضوا بالظلم وإن طال الزمن.
(2) هذا البيت أراد به الشاعر تصغير شأن خصمه.
(3) الشادي : المغني.

فانحـاز آخـره وارتـــد أولـهُ ... فانغـل عسكركـم بالـذُّل مُختمـرا
فلم تفيئـوا إلـى صـدر ولا ذنـب ... كأنكـم ترفضـون خلفكـم بعـرا
غارات حق من الرحمٰن ليس لها ... إلا اللجـاءُ وأنتـم للّجـا حُفـرا
فقتلـت منكـم سبعـين مـع مائـة ... بغيـر مـن بالبـراري سـاقطا نثـرا
وتابعتكُـم رجالنـــا تطاردكُـم ... رجال صدق وفي يوم الوغى صُبُرا
حتى جلوكم وقبلُ غيـر واحـدة ... جلوكـم عنكـم بقهـر مـن قهـرا
عـن العـذارى وأمـوال منعمـة ... تطمو بكثرتهـا الأحجـار والشجـرا
هذا وأنتم كمثـل الشـاة تتبـع ما ... من السبـاع تولـى هاربـا حـذرا
. . . . . نعجل بقتلكم ... إذ لستـم كلكـم أكفـاء مـن غـدرا[1]
هل تستوى ألـف عيـر فـي مزابلها ... مع ضيغم صيته استنـار وانتشرا[2]
أم هل يوازى بعبـد السـوء في ملأٍ ... مهذَّب عن صدور الناس قد صدرا
فـداء ديتُـه تربـو عـلـى مائـة ... وذا تثمـنه إن جـاوز العشـرا
لولا القصاص الذي في النور جاء كما ... قلنا ابعثوا عشـرة فدى لمـن ثـأرا
فقـال منهـا لكـم للحمـق قائلكُم ... وقد قضى اللهُ في الأُمور ما قدرا
واللـه لانفتـدى بعيننـا بشـرًا ... لو كـان فـي عـزّه وملكـه عمـرا
فاستكبرت قومكم عن حق مالككم ... قفـوا لإبليـس مـن بربـه كفـرا
ونحـن نخوتنـا قـد رض قسوتهـا ... شرع العزيـز فمـا أبقـى لها وضرا[3]
دليـل ذاك تعافيـنا وجرأتكـم ... ونحن أحـرى بأن نباهـى وأن نتـرا[4]
قطعتم السبل بعد القتل وانتشرت ... ريـاح ظلمكـم فأثـــرت أثـرا
ففرقـت فـرقـة منكـم أراجسـها ... والقائد أمكيٌّ في الأجـلاف مستترا[5]

(1) هذا الفراغ لم نتمكن من قراءته من المخطوطة الأصلية. (المؤلف).
(2) الصيت (بالكسر) : الشهرة والذكر الحسن.
(3) الوضر : الوسخ.
(4) بأن نباهى : نفخر. ونترا: نطلب الوكر.
(5) أمكي : اسم تارقي، وهو بطل من الأبطال وقائد من قواد قبيلة كلنتصر. قارع الفرنسيين في كثير من المواقع وألحق بهم هزائم نكرًا شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، إلا أن أيدي الاستعمار طويلة، فقتل =

بإثر خمس وعشر قومنا نهبت ... من قومكم قطعة تشفى بها الوحرا
فبعد خمسة أيام تُطالبُها ... أوشيعها نكصت عدو الظليم ورا[1]
تذكرت بعدما قلت مآكلها ... طعم المخيض فشدت نحوه الأزرا
كفعل ذئب الغضا لم يتركن بلدا ... له به شبعٌ يقضى به الوطرا
فلم نبال ولم نعبأ بجيشكم ... إذ أنتم ضعفا في جلية الأمرا
قد غركم تنكريكف وشيعتهم ... إذ يكذبون عليكم بينكم حضرا[2]
إنكم أنتم الذين قد نصروا ... نبينا حاش من به النبي نصرا
وأضحكت قومكم فيكم برابشكم ... أعداءكم خفية والحق قد ظهرا[3]
حتى جعلتُم كيُودكُم وجدكُم ... فينا كنانة لاجحدًا ولانكرًا
فمن أراد لها الدمار دمره ... رب السموات تدميرا كما سطرا
سلطتم بذنوبنا وغفلتنا ... على حمانا كلابا تأكل العذرا
فلن نفارقكم حتى تلين لنا ... منكم رقابا تحاكي الصخر والحجرا
حتى تفوا وتدوا من البرابش من ... صيرتم دمهم بظلمكم هدرا
قتلتم أربعين من كماتهم ... ونحن أجدر من يطالب الوترا
لأننا وهم كمثل جارحة ... متى اشتكى بعضها فبعضها نفرا

= بخيانة بعض من أبناء جلدته المتعاونين مع المستعمر.
والأجلاف: جمع جلف؛ وهو قاسى القلب وغليظه.

(1) شيعها : قربها. ونكصت : رجعت وتقهقرت.

(2) تنكريكف: قبيلة من قبائل توارق عرب الصحراء الكبرى. من أبناء أولاد ألاد. وقبائل التوارق ينقسمون بداخلهم إلى عدة أفخاذ، من بينهم فخذ ألاد، وهم أبناء عمومة توارق مدينة غات بليبيا.

(3) البرابيش : مجموعة قبائل ائتلافها سياسي وليس عرقيا تضم أكثر من عشرين فخذا من بينها فخد أولاد سليمان والعلاونة وأولاد ناصر والرحامنة، وهذه الأفخاذ لها امتدادات فى ليبيا. ويختص فخذ أولاد سليمان في البرابيش بالزعامة والعلم، وكانت وما تزال لقبيلة البرابيش المكانة المرموقة في جنوب الصحراء. ولايمكن لأي إمبراطورية أن تقوم لها قائمة مالم تكسب ود البرابيش، وقد ساندت قبيلة البرابيش الملك سن علي إمبراطور إمبراطورية سنغاي والتي تمتد من موريتانيا إلى نيجيريا في حروبه ضد المتمردين وفي فتوحاته للقبائل الوثنية. وسن علي يرجع أصله إلى أسرة ليبية نزحت من طرابلس الغرب وهي أسرة ضياء، ونشرت الإسلام فى تلك البقاع وأعجب أهالى البلاد بمكانة وأخلاق هذه الأسرة ونصبوا أحد أبنائها حاكما عليهم هو سن علي. وسن بمعنى حامي السنة.

ثم الصلاة على المختار من مضر ..... [1]

وآله ثم صحب تابعوه على حق فما عدموا الأعوان والنصرا

* * *

وقال أيضا يجيب أحمد سالم بن السالك اللمتوني قصيدته التي يقول فيها:

أرقت لبرق العارض المتهلل عيناك فانهمتا بدمع مسبل

بهذه القصيدة:

طرقت نفيسة والدجى لم ينجل وسنان من طول السرى في الهوجل[2]

باتت يمثلها لعيني طيفها فأرقت لا للعارض المتهلل[3]

غيداء كُنتاويةٌ أمويةٌ قُرشيةٌ ومن الطراز الأوّل[4]

لامن يعيش ولا دولحاجية عجماء لم تنبل ولم تتنبل[5]

لكن من الكنتي ينميها أبٌ فأب إلى عدنان غير مُضلل

ذمٌ على من يبتغيه وصالها بالقرب كانت أم بأرض الموصل[6]

فخر الفتى في وصلها لو ناله لكن لعزة وصلها لم توصلِ

* * *

(1) هذا الشطر غير مقروء فى المخطوط الأصلى.

(2) الدجى : جمع دجية أي الظلام. والوسنان : النائم. والهوجل : المغارة البعيدة لاعلم بها.

(3) الطيف : الخيال.

(4) الغيداء : المثنية لينا.

(5) يعيش : قبيلة من الحسانيين. ودولحاج : قبيلة أحمد سالم بن السالك. ولم تنبل : لم تكن نبيلة. ولم تتنبّل : لم تتكلف النبل. والنبل : النجابة.

(6) الموصل : مدينة بالعراق.